قصائد جزائريّة

ترجمة عبد الحميد بن هدوقة

قصيدتان لمالك حداد

١

أردت الأسمى
إذن لا تستمع.
أندِّد بالزهرة التي تنتهي حياتها على حجر.
سعيد هو الشاعر الذي سيسكت.
لكن الآن لا بدّ من الكلام.
عندي عشرة ملايين ذكرى.
أو ربّما أكثر.

أدافع عن عطر الأزهار التي ستبدع.
في طائرتي اللعينة يستولي عليّ اليأس.
إننا لا نحبّ أبداً أكثر مما ينبغي،
أمتصّ أفكاري كما تمتصّ قطعة من خشب.
حلمي الذي يماثل مدينة أموات يرافق الليل،
الليل الذي يجب أن نقتله،
الليل الذي يجب أن نقتله،
إلى أن تنبلج حياة

استمع إليّ إنني خائف.
إننا ذاهبون إلى رؤية أصدقائي الذين ماتوا.
قرية حلّق فوقها كل الشؤم الممكن.
ذكرى ملتوية كالمسمار.
أمل مهشّم كزجاجة من مطر.
الغزالة الخائفة تعرف الأسطورة.
الأغنام الموتى والرجال المختطفون.

نذهب لنرى.
المصنع الجهنّمي لصانعي المغامرات،
النهاية المفروضة على نبض ماء الحياة.
وفظاعة طعم التعوّد.
لا بدّ من الحياة مهما كان الأمر.
أشعر بالضجر في كل مرّة،
وأنا بعيد عن الجزائر.

سنخترع رزنامات جديدة،
سنذيب الكلمات في نعوش أصدقائنا،
سنمسح دموعنا في أكفان بائسة،
وسنقول لأطفالنا الأيتام ألف مرّة،
ستلدون أطفالاً يعرفون آباءهم،
وسيقولون:
الرجل هو وطني.

قلبي لم يتجاوز تجاوزاته.
أشعر بالضجر في كل مرّة وأنا بعيد عن الجزائر.

من بعد سنصنع ألحاناً تغنّى
البارود أشمئزّ منه وأفهم البارود.
أفضّل زنبقة خطيبة لشهر مايو.
ما دام شهر مايو يذكّرني بقالمة.
ما دام أن ليس هناك يوم بلا تاريخ.

مع كل الدروب يمضون إلى النهار
لأبحث عن اسمي بين لوحات اللحود،
مندهشاً أن الماضي يعدّ الغد
لقد حلمت دوماً بلحن سيأتي.

(من ديوان «الشقاء في خطر»)

٢

صديقي قتل بين القيثارات
وفي حقل قمح
كان شاباً
كان جزائرياً

كتب تاريخي الجميل
كان يتكلّم أحسن من حقل القمح.

أحبّ أن أقول شكراً
أنا عازف وهو صانع الموسيقى
أنتظر واقفاً الحلم الذي سيصنع
وأقول شكراً

في سنابل القمح أعرف الآن اليعسوب.

أيّها النبع انتقم له
قطّر قطرات القلال
أيّتها الزهرة الحمراء اذهبي إلى ذراعيه
قولي له ليحلم بقصيدة من الشعر.

قطّر قطرات القلال
وامتلىء بارودا،
يا قلبي.

المطر ينزل على وطني موتاً وأساطير
يكفي أن تكون هناك سنبلة لكي يغنّي القمح
يكفي لحظة لكي يهبط الليل،
ولحظة أيضاً لكي يولد السرور
الخبز
نأكله
بألف حرج
بمائة حذر واحتياط
رجل هو صديقي
إنه ينام في الأسطورة.

أمّي
ينبغي أن تبكي...
ينبغي أن تبكي هذا الولد الذي صار ابنك
منذ أن اختار أن يناديك أمّي.
فباسم الحصاد سماك «ماما»
لقد رضع في ثديك طعم النور.

المطر يسّاقط على أسطورتي
وأسطورتي تشكو ألماً في عينيها
عندما يهيج الغربان
ذلك يعني خوفهم من الموت

شهيّة طيّبة يا سادة.
لم يبلغ الثلاثين من العمر.

كان ذلك صديقي بنظراته الطويلة الواقفة
لكن الغربان تسرق الحبوب
الفلاّح الذي يخاف على حرثه يعرف ذلك
لكن الكواسر تحصد القمح.
وقلبي الذي يخشى على أغانيه يعرف ذلك.

إنه حلم ملتهب في أرض الجزائر.
إن ناسسج العالم هو صانع القمح.
عندما كان يحارب، كانت الحرب أمامه أخطبوطاً من حديد.
ولكي يطرد الشتاء مات في الصيف.

أستمع إلى الأغنية التي تتردّد باستمرار
إنه السرور الذي أسمع في أرض الجزائر
جنود الصباح هم أطفال الحب
إنهم نائمون في حقول القمح لكي نتذكّر.

ارقصي أيّتها الزهرة الحمراء
صديقي قتل بين القيثارات.

(من ديوان «الشقاء في خطر»)

قصيدتان لجمال عمراني

أغانٍ للذكرى

١ ـ إليك يا مبرّر وجودي
يا روح الوحدة العريض
لنؤجّل آلامنا
أبتهل إليك أيها الوميض الغامض
أيها الهوى العابر وأنا أمامك أنتظر
قلبي يلتفت ناحية المقبرة وأنا نائم
أيها السلام المؤمّل. . . السلام المخيف
أيها السلام الذي يهمس به المطر
المطر يسّاقط والشمس زبد
الشمس غرقت في المطر
المطر غرق في اللبّ العاري لذاكرتي
احترق البؤبؤ لأنه لم يعرف كيف ينمو
أتنوّر بالحكمة والقناعة

٢ ـ لمعان الخنجر
ـ وجه المعذّب
بيد أن الشمس تتضاءل
بالقرب من القبر الجماعيّ
الخريف ألقى السلاح
وأهيج غضباً
وطعم رماد يبقى معلّقاً في شفتي.

٣ ـ أبداً لن تذبل الزهرة
ضحكتك استعادت نبرتها المسرورة
الزمن بلبل صبري
دعوني أحلم
لحظة تنفّس لا أكثر
وليكن ذلك إعلاناً عن ربيع جديد.

٤ ـ الموت له عينان
مثقلتان بالدّوار
غارقتان في جون دمي.
أيتها الأنهج التي لا تنتهي، الأنهج الفارغة
الليل الحائر يغطّي قلبي
كم من دم أيضاً ما زال يسيل! كم من جثث تحصى!
كم من مقابر تجمع (وتتجمّع)!
إن الشمس السجينة سوف تنتصر
شمس العقل.

٥ ـ ويأتي السلام وكل شيء يعود إلى مجراه:
صمت العيون الجريحة
و. ء المرضعة الحنون
تباشير المواليد الجدد
وعجلة الزمن، الزمن الذي لا يرحم
ويأتي السلام وكل شيء يعود إلى مجراه.

٦ ـ الزهرة التي تلتهب في النار
الثقة المخدوعة
النظرة العارية
والطفولة المفترسة
تبقى رائحة جسدك
وبصمة وجهك الشمعي
وحبّك الذي يعيد إليّ براءتي.

٧ ـ احتفظت بسرّ في قلبي
سرّ بكر، سرّ من دم جديد
أيها الشفق الطويل، أيها الصوت الذي لا صدى له.
أيتها الحياة التعيسة إنسانياً
أتساءل دائماً لماذا أنا غير أهلٍ،
لحبّك. هناك مذنب أكبر مني
لكن بما أني هناك أخذ الموت وجهك
الزهرة تلتهب في النار
وتعيد إليّ براءتي.

من ديوان «إلى أبعد مدى يصل إليه بصري»

اعتراف

إلى صديقة حكم عليها بـ ٢٠ سنة سجناً مع الأشغال الشاقّة من طرف المحكمة العسكرية للقوات المسلّحة الفرنسية، في سبتمبر ١٩٥٧، بالجزائر.

الموت سيكون عندي أقل فظاعة
لو آخذ صورتك معي،
لو آخذ الأمل المطمئن في غفرانك،

وعنفوان شبابك،
ثم أنسى كل شيء!
تستطيعين الذهاب إلى مكان آخر حيث السلام.
أيها الحزن اللذيذ في طراوة الضجر
ألم أحي ما في الكفاية؟
حييت في اللذّة والمرارة
علمي ضاع في الزوبعة
في النبع الحي لعمري
وهناك، البحر يعرض شبقه
وهناك، أموت مئة مرّة في اليوم
أموت في سجن جسدي.
الكلمات لا معنى لها الآن.
تحدّثينني دائماً عن الأطفال الذين يُقتلون
في الفيتنام، في غيتوهات فلسطين المحتلّة،
في تفكيك أجزاء إفريقيا الجنوبية
(...)
نعم الذكرى هناك، لا تتعفّن في أعماق القعر.
مطاردة الذئاب، مطاردة الخيول القصيرة الشعر
كنت تقولين لي:
«يريدون» قتلنا كما تقتل الأرانب»
ووجهك المسودّ يشعّ عندئذ إشعاعاً!
لا تحزني نسيمة إننا حتى ولو أنهكنا التعب والعطش
لقد كتبنا بالدم والعرق حريتهم...
حريتنا
احمرّ عشب المروج
تأبّدت الجريمة والبهتان
دموع الشعب تيبس قبل الانبجاس.
نسيمة، ضعي عنك حقدك،
ضعيه تحت الماء
دعيه يتطهّر في الصمت.
بأسلحتنا، بإيماننا ننتصر عليهم.
الآن (من ذالا) يتذكّر «داشو»، و«رفانسفورك»
و«لامبيز»، و«عين وسّارة»، و«بني مسوس».
الآن، الجزائر، إفريقيا، الكل سيتجند
الغضب يشحذ الخناجر.
الآن، أنت حزينة، وأنا ضائع (عاطل) (لكن) الأمور
ستعود إلى مجراها...
الآن، ستتأجّج ذكرى الأموات والمنفيّين
الآن، الأزهار في الحقول تستعيد ألوانها.
الآن، أعطي براءتي للمعركة
الآن، الشعوب المشتّتة، المضطهدة، ومختلف الأجناس
ستتّحدون ويشكّلون كوكبة واحدة
الآن، الحرب الشرسة هي التي تعطي الإيقاع للحرية
الآن، المعركة تلهب القلوب للفعل المشترك
والآن، الموت سيكون عندي أقلّ فظاعة،
لو آخذ صورتك معي
لو آخذ الأمل المطمئن
في غفرانك، وعنفوان شبابك.

نبذة بيوبيليوغرافية عن مالك حداد

(١٩٢٧ - ١٩٧٨)

وُلد الفقيد مالك حداد في ٥ يوليو ١٩٢٧ بقسنطينة (الشرق الجزائري). تعلّم في مدارسها الفرنسية حتى نال شهادة الباكالوريا. ثم عمل من بعد معلّماً فترة قصيرة. بدأ الكتابة الأدبيّة في سنّ مبكّرة. فمنذ سنة ١٩٤٨ أخذ ينشر قصائد شعريّة في جريدتي «الجزائر الجمهورية» و«الحرية» الفرنسيتين اللتين كانتا تصدران بالجزائر حينئذ. كانت أشعاره في البداية ذات نكهة شيوعية تمجّد ستالين وغيره من قادة الشيوعيّة. ولعلّ ذلك يرجع إلى ما كانت الصحافة الفرنسيّة اليساريّة تنشره عن ستالين والشيوعيّة بعد الانتصار الماحق على النازيّة. إذ إن هذه الصحافة اليسارية هي التي كانت مقروءة من طرف الجزائريين لما يجدون فيها من عطف أو تعاطف معهم.

سجّل مالك نفسه بكلية الحقوق بـ «ايكس - آن - بروفانس» بفرنسا، لكنه لم يتم دراسته. فما لبث أن التحق بكاتب ياسين بـ «الكمراغ» على نهر الرون، حيث كان يعمل هناك في أحد المعامل..

وقد أخذ شعره وأدبه ينضج ابتداء من سنة ١٩٥٦، وهي السنة التي نشر فيها ديوانه الشعري «الشقاء في خطر».

ومن سنة ١٩٥٨ إلى سنة ١٩٦١ كان ينشر رواية في كل سنة..

ثم غادر فرنسا. وقام بمهمّات عديدة كلّفته بها جبهة التحرير الوطني في الاتحاد السوفياتي ومصر وسوريا والهند وغيرها...

بعد الاستقلال في سنة ١٩٦٢ عاد إلى مدينته قسنطينة، حيث كان يشرف على الصفحة الثقافية في جريدة «النصر» التي كانت في البداية تصدر بالفرنسية من سنة ١٩٦٥ إلى سنة ١٩٦٨. ابتداء من ابريل سنة ١٩٦٨ إلى أغسطس ١٩٧٢ كان مديراً للثقافة بوزارة الإعلام والثقافة. وقد قام أثناء ذلك بإعداد الملتقى الوطني للثقافة الذي انعقد من ٣١ مايو إلى ٣ يونيو ١٩٦٨. كما قام بإعداد المهرجان الثقافي الإفريقي الذي جرى في شهر يوليو سنة ١٩٦٩. بعد يوليو ١٩٧٢ عمل مستشاراً ثقافياً تقنياً مكلّفاً بالدراسات والبحوث في ميدان الإنتاج الثقافي بالفرنسية.

وفي ١٣ يناير ١٩٧٤ انتخب أميناً عاماً لاتحاد الكتّاب الجزائريين.

لعلّ أهمّ ما يلفت النظر في حياة مالك حداد هو شعوره العميق بالذنب على أنه يكتب بالفرنسية. وقد تخلّى عن الكتابة الأدبية في عهد الاستقلال، ما عدا قصيدة واحدة عن فلسطين سنة ١٩٦٧.

إن مسيرة مالك حداد الروحيّة انتهت به إلى الإيمان بالله، كما أشار إلى ذلك في روايته «الانطباع الأخير» سنة ١٩٥٨. (ترجم عنوان الرواية الدكتور حنفي بن عيسى: الوداع الأخير!).

كان مالك حداد رحمه الله شاعراً ذا حساسية كبيرة. تركّزت أعماله الأدبية على معركة الجزائر من أجل استرجاع حريّتها وسيادتها.

من خلال قراءتنا لأعماله نجد أحياناً تأثيراً واضحاً لشاعرين فرنسيين كبيرين هما: أراغون، وايلوار. ولا غرابة في ذلك. إذ كلا الشاعرين تحدّث عن الحرب والحربية بأروع ما يمكن أن يلهم به الشعراء.

ليس شعر مالك حداد وحده الذي عالج موضوع الحرب والحرية، فرواياته أيضاً تتحدّث عن ذلك. إن مالك حداد شاعر أكثر منه روائياً. هكذا يبدو لنا على كل حال.

وأمّا في أعماله الدراسيّة فإنه يتحدّث بالخصوص عن قضية الكتابة بالفرنسية من طرف كتّاب جزائريين. لقد قال: «إن منفاي هو اللغة الفرنسية.» وقال أيضاً: «نحن نكتب الفرنسية لا نكتب بالفرنسية.» أي لا نكتب كفرنسيّين.

وفي سنة ١٩٦٤ صرّح بأن الكتابة بلغة الأعداء السابقين أمر مستحيل: «ينبغي أن ننسحب من الساحة ككتّاب.» وهو موقف لا يشاركه فيه بقية الكتّاب الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية. ويقال إنه استمرّ في الكتابة الأدبية بالفرنسية ولكنه لم ينشر ما كتب؟

والواقع أن الكاتب لا يستطيع التخلّي عن الكتابة باسم الوطنية، كما يبدو لنا، ذلك أمر عسير، إنما المهم بالنسبة لهؤلاء الكتّاب هو: «ماذا كتبوا، وماذا يكتبون»؟

لكننا إذا كنّا لا نلوم الجيل الأول من الكتّاب الذين تعلّموا وعاشوا فترة من حياتهم الأدبية في ظلّ الاستعمار، فإن كتّاب عهد الاستقلال لا مبرّر لكتاباتهم بالفرنسية، ولو أننا ندرك أنهم لم يختاروا اللغة الفرنسية، إنما فرضتها عليهم المدرسة، لأسباب لا محلّ للتعرّض إليها هنا. إن شخصية الكاتب لا تتحقّق في غير لغته. وقد قلت كم من مرّة: إن لغة الكاتب هي وطنه. وقد أحسن تعبير مالك حداد عندما قال: إن التاريخ أراد أن أكون دائماً بين حبلين وحضارتين.

والخلاصة أن كتابات مالك حداد تعكس بصدق كرمه الروحي وبساطته وإنسانيته.

مؤلّفاته:

- الشقاء في خطر شعر - لانيف - باريس ١٩٥٦ (٦٠ صفحة)
- الانطباع الأخير - رواية - جوليار - باريس - ١٩٥٨ (٢٠٤ ص).
- سأهدي إليك غزالة - رواية - جوليار - باريس - ١٩٥٩. (١٨١ ص)
- التلميذ والدرس - رواية - جوليار - باريس ١٩٦٠. (١٥٨ ص).
- رصيف الأزهار لم يعد يجيب - رواية - جوليار - باريس ١٩٦١. (١٩٤ ص).
- استمع وأناديك - دراسة - ماسبيرو - ١٩٦١. باريس - (١٣٤ ص).
- الأصفار تدور حول نفسها - دراسة متبوعة بقصائد شعرية - ماسبيرو - باريس - (٤٨ - ١٣٤ ص).
- النساء الجزائريات - ألبوم مصوّر - وزارة الإعلام والثقافة - الجزائر - (٨٨ صفحة).

نبذة بيو - بيبليوغرافية عن جمال عمراني

وُلد الشاعر جمال عمراني في ٢٩ أغسطس ١٩٣٥ بصور الغزلان (١٠٠ كلم تقريباً شرق العاصمة الجزائرية).

زاول تعليمه بالمدارس الفرنسية، إلاّ أن الثانوي منه كان بالجزائر العاصمة بثانوية بيجو (الأمير عبد القادر حالياً).

شارك في إضراب الطلبة الجزائريين الذائع سنة ١٩٥٦، ضد الاستعمار الفرنسي. ألقي القبض عليه من طرف السلطات الاستعمارية سنة ١٩٥٧.

أبوه وأخوه وصهره المحامي علي بومنجل، ألقي عليهم القبض ثم قتلوا من طرف الاستعمار.

بعدما أطلق سراحه توجّه إلى فرنسا. وهناك تصادق مع مجموعة من الكتّاب الفرنسيين. ثم اضطرّ للجوء إلى سويسرا. وبعدها ذهب إلى وجدة بالمغرب الأقصى، حيث كان مقرّ أركان جيش التحرير الوطني الجزائري للناحية الغربية.

وجمال عمراني هو أحد الذين أصدروا مجلّة «الجيش».

بعد الاستقلال، شارك في إصدار عدد من الدوريات الجزائرية والجرائد، كـ «الشعب» و«الثورة الإفريقية»، و«النصر» (بالفرنسية).

عمل مستشاراً ثقافياً لفترة من الزمن بالسفارة الجزائرية بكوبا. كما سافر إلى الاتحاد السوفياتي ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا...

عمل أيضاً منتجاً بالإذاعة الجزائرية (القناة الفرنسية)، حيث أحدث مجموعة من البرامج الأدبية والشعرية.

إن جمال عمراني من الشعراء الجيّدين الذين يكتبون بالفرنسية. يمتاز شعره، رغم حدّته، بالبعد الإنساني والشمولية، والهيام بالحرية والسلام في هذه الأرض الطيّبة. وهو ككثير من الكتّاب والشعراء الجزائريين أخذت حرب التحرير من حياته الروحية والشعرية القدر الأوفى.

مؤلّفاته:

- الشاهد - قصة مطوّلة - منشورات مينوي - باريس ١٩٦٠ - (٨٤ صفحة).
- غناء لأول نوفمبر - شعر - منشورات الفن أ ب م/باريس ١٩٦٤.
- شمس ليلنا - شعر وقصص - منشورات «سوبيغفي» - رودس - ١٩٦٤ - (١١٢ص).
- مخيم اليقين - شعر - الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٩٦٨ (١٢٠ ص).
- إلى أبعد مدى يصل إليه بصري... - شعر - الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٩٧٢ (٢٤٦ ص).
- لا وجود للصدفة - مسرح - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٩٧٣ (١٢٥ ص).
- آخر شفق - قصص - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٩٦٨ (١٣٥ ص).
- أيام بلون الشمس - شعر - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٩٧٩(١٣٦ ص).
- بين السنّة والذاكرة - شعر - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٩٨١ (٩٣ ص).
- صيف بشرتك - شعر - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٩٨٢ (٨٥ ص).

كما نشر مجموعة هامّة من القصائد والدراسات المختلفة عن الكتّاب الجزائريين والأجانب في الدوريات الجزائرية.